

من أمطار الوحدانية؛

الكتاب بين الشرق والغرب

لأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

المرحلة الأولى من استقلالنا الفتي لا تزال اللغة الفرنسية مهيمنة بأجهزة فكرية منظمة على جانب من حياتنا الحضارية ذلك يفكر بعضنا في كثير من الأحيان تفكيراً يستمد جذوره من ثقافة المستعمر حتى ولو كانت لغة تعبيره هي العربية فرسالة التعريب في المغرب العربي هي غيرها في الشرق العربي لأن الشرق ينطلق من لغة الضاد فيطعمها بلوازم العصر ونحن ننطلق حتماً من المزيج الحضاري الغربي العربي الذي عشناه ونعيشه لتخليق تراث جديد يربط ماضينا المجيد في كامل مقوماته بحاضر انصهرت في بوتقته عناصر علمية وتقنية وحضارية إنسانية فالشيء الذي يهنا الآن هو تحقيق هذا الهدف القريب الذي يستلزم عجن الطينة العربية عجنًا جديدًا في غير هوادة حتى تصبح لفتنا - كما كانت في العصور الوسطى بل أكثر مما كانت في العصور - أداة دولية للتواصل بين الاجناس في دقة علمية ورصانة تقنية وتجاوب عميق مع ما استجد في العصر من خلجات ولوجات فنحن في المكتب الدائم نعد العدة لهذا التعريب مستمدين من الشرق ما سبقنا الشرق إلى تعريبه ومستمدين من الغرب ما يجب أن يدرج بوضوح لتطعيم هذا المدد فلا تقبل من هنا أو هناك إلا ما يكفل استقصاء عراقية الضاد واستقراء مفاهيم العصر دون لبس ولا غموض فمثلنا مثل الطفل الغريب الذي يسأل والده عن اسم هذه الآلة أو تلك فاذا أعطاه اسماً ما لمسمى ما قبله ولكن إذا أعطاه نفس الاسم لمسمى مغاير سال والده

لن نأتي بجديد إذا قلنا إن المغرب العربي الإسلامي استمد ولا يزال يستمد كثيراً من مقوماته الحضارية من شقه الشرقي وخاصة في الحقل الثقافي فالفكر العلمي الإسلامي عندنا ليس سوى امتداد أصيل مبدع للتراث الذي انبثق من قلوب العروبة النابضة في الحرمين ودار السلام والقاهرة ودمشق وحتى بالنسبة للعصور الحديثة فإن أسبقية الشرق إلى تطعيم الفكر العربي بمعطيات الفكر الغربي المعاصر جعلت من اللغة العربية وهي المفهوم الجوهرية للوحدة أداة تنصارع في تصاعد مطرد مع مقتضيات التطور العلمي والتقني الجديد على الصعيد الإنساني ولعل من أبرز ما استرددناه من الغرب المستعمر ما كان للفتنا من دقة في التعبير وجللاء في التصوير وضبط في التنظير وقد استطاع الفكر اللاتيني خلال فترة الاستعمار أن يفهم لغته وثقافته في البرامج الدراسية بحصة الأسد حتى أصبحت الفرنسية بالنسبة لجانب مهم من رجال الفكر في المغرب العربي الجهاز الأساسي للتفكير والتعبير هذا بينما ترك نفس الاستعمار أخواننا في الشرق يمرحون في حرية نسبية داخل قفص مقفل مغرب البرامج والمناهج، فحركتنا الهادفة للتعريب في المغرب العربي لا تنطلق من نفس الأساس الذي انطلق منه التعريب في الشرق - إذا كان هنالك انطلاقاً للتعريب في الشرق حيث احتفظت العربية في الواقع بمكانتها العريقة مع جمود نسبي ناتج عن عوامل الاستعمار - فنحن بالرغم من جهلنا الجهيد في هذه

العربي مضيغة أحيانا ما يوحي به اللفظ الاجنبي بكامل الدقة وتاركة لمؤتمرات التعريب المقبلة اصدار الكلمة الفاصلة في ذلك فهذه مرحلة أولى وضرورية للتوحيد فيها جرد للتراث وتقييم لمعطياته يسهلان مهمة الانتقاء .

فمجامع اللغة والمجالس العلمية العليا والاتحادات التقنية يجب ان تقوم بالبادرة الاولى لتسهيل عملية التنسيق في المكتب انطلاقا من اختصاصها وعلى المكتب أن يجمع وان ينسق في استقراره واف واستقصاء كشاف واستكمال للمفاهيم بالمقارنة والتنظير بين محتويات القواميس والمعاجم قديهما وحديثها صحيحها وسقيمها على اختلاف لغاتها وخبرات أصحابها ولا شك ان بذلك تتكون حصيلة لغوية صالحة تسير العصر وتجعل لغة الضاد جديرة - كما كانت - بأن تفرض وجودها في المحافل الدولية لا استجابة لعوامل وضغوط سياسية بل استنادا الى قيمة حقيقية علمية وتقنية للفتنا كأداة أممية للتقارب والتواصل .

ان سلفنا قد كد واجتهد لاحلال اللغة مكائنها العالمية المرموقة ونحن يجب ان نواصل هذا الجهاد بسلاح العصر ومراوغات العصر للاحتفاظ بهذه المكانة وتضعيدها اذا اقتضى الحال .

وإذا كان الناس يعرفون ما حققه الشرق العربي من بادرآت لكفالة هذا الاستثمار والاستقرار في مختلف الامصار والاعصار فان الكثير لا يعرفون بدقة مدى اسهام المغرب العربي في هذا الجهاد فلذلك ندم هذه الديباجة بفدلكة موجزة هي انموذج مبسط يلقي ضوءا على جانب من المبادرات المغربية عبر الاجيال في هذا الحقل الحيوي من جهادنا الحضاري المشترك .

وتجدون في غير هذا المكان من هذا العدد الممتاز معيجمًا للقويين يبرز جزءا من التراث اللغوي المغربي الذي هو امتداد أصيل لتراثنا العربي العام .

في غرارة الطفولة كيف اذن نفرق بين مسميين لهما اسم واحد فنحن نريد ان يوفر العرب لكل مسمى علمي قديم او حديث كلمة موحدة تعبر عنه في جزالة وجللاء ونحن اذا تقدنا ما بين ايدينا من غث وسمين مما يرد علينا من الشرق فلنا بزاعمين اننا ننقن الشرق الا بقدر ما يلقن الطفل والده او التلميذ استاذة في نطاق الاستمداد البناء واذا كان هنالك شيء سيفيده الوالد من ولده والاستاذ من تلميذه في هذا المجال فهو اجراج هذا ذلك نتعبه ما له من خيرة اوسع وحنكة ادق وتجربة ابلغ لتجلية الدلالة وتعميق الاصاله وتدقيق العبارة وتوحيد الاشارة .

وقد زاد في الطين بلة بين شقي العروبة ما بين قوام الاستعمارين اللاتيني والانجاء سكوني من بون يتسع احيانا ليعمق الهوة بين الثقافتين الاجنبيتين اي بين يتبوعي الاستمداد النسبي في حضارتنا الموحدة فالمقابل العربي المقترح للتعبير عن مدلول علمي او تقني حدث مستمد من خلال هذه اللغة او تلك يختلف في بعض الاحايين الى حد التناقض لما يكون احيانا بين اللغتين من نياز لا يتلافاه الا من تضلع فيهما ونظر بين قواميهما لاستخلاص القدر العلمي المشترك او المشاع بينهما وبكفي لتدرك هذه الظاهرة ان تقارن بعض ما يرد عليك من دمشق ببعض ما يرد من القاهرة لتلمس صعوبة مجرد التنسيق ولا نقول التوحيد ونحن نعلق على اتحاد الجامع الثلاثة في القاهرة ودمشق وبغداد اكبر الآمال لتقريب الهوة وتثوير الصوة لان رسالة التوحيد يجب ان تنبثق في الحقيقة من هذه الجامع اذ لا نتجاوز نحن تجميع وتنسيق ما تحفنا به هي نفسها غير ان خبراءنا في الوطن العربي يدفعون دفعا الى ان يتساءلوا ويلحقوا في التساؤل، انتجاعا للدقة، عما تنطوي عليه بعض المقابلات العربية الشائنة والمقترحة من لبس وسطحية او عما يتم عنه احيانا معجمنا الجديد من تنكر للاصاله وللدقة والوضوح .

وهذا مشكل لا تحله معاجمنا التي ترصص في صف واحد ما يستعمل هنا وهناك في اجزاء الوطن